خطة ميثاق العلماء

أعلام المغرب
- دَرَّاسُ بن إسماعيلَ الفاسي (ت 357 هـ) -
العالم الولي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، وعلى آله وصحبه، ومن اقتدى بهم من بعده، أما بعد،

[لمحة عن تاريخ المذهب المالكي في المغرب]

سبق إلى المغرب مذاهبُ فقهية كثيرة قبل المذهب المالكي، وخصوصا مذهب الأوزاعي ومذهب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى؛ وبعد أن بدأت رِحْلاتُ أعلام المغرب إلى البلاد المشرقية للاستزادة من الرواية وتحصيلِ مراتبَ أخرى في الدراية، كان اللقاء في أوساط القرن الثاني يتزايد على إمام الحجاز عموما وإمام المدينة المنورة خصوصا مالكِ بن أنس، وبدأت علاقةُ المغاربة به تمتُن وتتمكن، لخصائصَ كثيرةٍ في مذهبه، كانت مناسبةً وموافقةً للتدين المغربي[1].

ثم بعد ذلك أدخل عامر بن محمد بن سعيد القَيْسي -قاضي إدريس بن إدريس- كتابَ "الموطأ" لمالك بن أنس، فتعلقت أنفاسُ المغاربة بالمذهب المالكي وتشبثوا به وزاد طلبُهم لأصوله وفروعه، حتى صار مذهبا رسميا لهم في القضاء والفتوى والفقه.

[1]- "مقدمة ابن خلدون" 568/1.

ثم دخلت "المدونة" لسُحنون على يد دَرَّاس بن إسماعيل، الذي كانت له اليد البيضاء على توطيد وترسيخ أصول المذهب في هذه البلاد.

[مختصر ترجمة دراس بن إسماعيل]

قال العلامة محمد بن جعفر الكتاني في "سلوة الأنفاس"[1]: أبو ميمونة دراس بن إسماعيل، عالمُ فاس في عصره، الشيخ العلامة الفاضل، الحافظُ الحجة الكامل، الولي الصالح، الهمام الواضح، أحدُ أوتاد المغرب، وممن أدخل مذهب مالك بلادَ المغرب، وكان الغالبُ عليه في القديم مذهبَ الكوفيين..

وقال أبو الحسن الجَزَنَّائِي في "جنى زهرة الآس"[2]: وسُمِّيَ درَّاسًا لكثرة دراسته للعلم. اهـ

وقد سمع من شيوخ بلده بفاس، وبإفريقيةَ من أبي بكر ابن اللَّبَّاد، وسمع بالإسكندرية من علي بن أبي مَطَر كتابَ ابنِ المواز، وحدّث به بالقيروان، سمعه منه ابن أبي زيد القيرواني وأبو الحسن القَابِسِيّ.

ودخل درَّاسٌ الأندلسَ، فسمع من أبي الفرج عَبدوس بنِ خَلَف، وغيرِه...

وذكر القاضي عياض في "الترتيب"[3] أيضا أنه دخل الأندلسَ جامعا بين طلب العلم والرِّباط في الثغور مجاهدا. قال: وأراه دخل بلدنا. -يعني سبتة-.

وهكذا كانت بدايةُ هذا العالم الجليل، الذي سيؤسِّسُ بإخلاصه في الطلب ونشاطه في التحصيل ورِحْلاته الطويلة والمتعددة عهدا جديدا في التدين المغربي، ببنائه لِلَبناتِ المذهب المالكي الأولى، بعد أن تشبَّع بأصول هذا المذهب السني، واعتقد في صلاحيته للجواب عن قضايا الناس الدينية والدنيوية، مع ضمان التحقُّق بأحكام الشريعة ومقاصدها، إضافة لما تميَّز به من روح التيسير ورفع الحرج الذي هو من أسسها وأصولها.

---

[1]- "سلوة الأنفاس" للكتاني 197/2.

[2] - "جنى زهرة الآس" للجزنائي ص 20-21.

[3] - "ترتيب المدارك" 81/6.

كما أنه لم يكن بمنأى ولا عزلةٍ عن قضايا أمته الكبرى، حتى إنه خرج للأندلس مرابطا في الثغور، حين دعا لذلك داعي الجهاد بأمر من إمام الوقت، ولم يمنعه الجهادُ أيضا من السير قدُما لتحقيق غرض مشروعه العلمي الكبير في جمع الأصول التي تؤثِّثُ البيتَ المالكي بالمغرب وتؤصل لمباحثه.

[درَّاس بن إسماعيل في أعين العلماء والمؤرخين]

قال أبو بكر المالكي[1]: كان أبو ميمونةَ من الحفّاظ المعدودين، والأئمةِ المبرِّزين من أهل الفضل والدين، ولما طرأ إلى القيروان، اطلع الناسُ من حفظه على أمر عظيم، حتى كان يقال: ليس في وقته أحفظُ منه، وكان نزولُه عند ابن أبي زيد، وظهرَ تقصيرُه بأهل القيروان، وشفوفُه على كثير منهم. اهـ

وقال أبو الوليد ابن الفرَضي في "تاريخ علماء الأندلس"2: كان: فقهياً حَافِظاً للرأي عَلَى مَذْهب مَالِك. اهـ

وقال أبو الوليد الباجي[3]: "كان شيخا صالحا". اهـ

وقال الكتّاني في "السلوة[4]: ولما ذكر الشيخ أبو عبد الله اليَّسِيتَني[5] في تقييد له في القبلة، ردّ به على الشيخ أبي زيد عبد الرحمن التَّاجُوري، بخصوص محراب القرويين، وأنه لا انحراف فيه؛ جعل يذكر الأئمة الذين صلَّوا فيه من غير انحراف، ثم قال: وكالشيخ أبي ميمونة، حافظٌ كبير وعالمٌ جليل ...اهـ

ثم قال الكتّاني[6]: وكان رحمه الله عارفا عابدا ورعا زاهد. اهـ

وذكروا له في هذا قصصا عجيبة وأمورا مستحسنة.

وبتأمُّل شهادات العلماء في دراسٍ نستخلص الفوائد الآتية:

1- "سلوة الأنفاس" للكتاني 198/2.

2 - "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي 173/1.

3 - "سلوة الأنفاس" للكتاني 198/2.

4 - "سلوة الأنفاس" للكتاني 198/2.

5- قال مخلوف في "شجرة النور الزكية" 409/1: أبو عبد الله محمد بن أحمد اليَّسِيتني: بفتح الياء وكسر السين المشددة، نسبة لقبيلة. اهـ

6- "سلوة الأنفاس" للكتاني 198/2.

- أن دراسا رحمه الله بلغ ما بلغ بالاجتهاد والفطنة والذكاء، حتى أدرك درجةَ الحفاظ المتقنين، سواء في علم الرواية أو في علم الدراية.

- شهادة أهل القيروان له بالتفرد في مراتبَ عليةٍ فقهيا وحديثا، دليل على أنه سُقِي بالعلوم والمعارف في فاس التي كانت حاضرةَ العلم والمعرفة بشيوخها ومدارسها ومناهج علمائها، نخرج منها أستاذا، وإن كان يُبدي أن غرضَه في الخروج الطلبُ لا التعليم.

- يلاحَظ في شهادة ابن الفرَضي لدرَّاس، وفاؤُه بالمذهب الذي نشأ في بيئته واقتنع بأصوَبِيَّته وأرجحيتِه، فصار جامعا لشتاته مُحافظا على أصوله واصلا الشرق والغرب بمصادره.

- ولا يخفى ما في شهادة الباجي لدراسٍ أيضا بالصلاح، أن العالم المستصحِبَ مع علمه صلاحَ الخلُق وصفاءَ القلب هو العالمُ النافع المؤثر الذي يبقى ذكرُه بالخير في العالمين؛ ولذلك قال الشيخ أبو الفُتوح التَّلِيدي في "المطرب بمشاهير أولياء المغرب"[1]: وأقدم مَن عرفناه بهذه الديار من العلماء الزهاد سيدي درَّاسُ بن إسماعيل الفاسي. اهـ

- وأما قصة اليسيتني مع التاجوري في استدلال الأول على صحة قبلة جامع القرويين بصلاة دراس بن إسماعيل فيه دون نكير، دليل على أنه حجة في نفسه بفعله، فضلا أن يكون حجة في أمور الشريعة بأدلته وبراهينه، ومثل هذا الاحتجاجِ من اليَسِّيتَني لا يكون إلا بمثل الأفراد من هذه الأمة الجامعين بين العلم والورع والصلاح والتقوى، كما عبر عنه الكتاني في "السلوة".

[وفاة دراس بن إسماعيل]

قال أبو الحسن الجَزَنَّائِي في "جَنَى زهرة الآس"[2]: وذكر ابن التَّبَّان، أن رجلاً، رأى سنة ثمان وخمسين في المنام -بالرَّمَادة، وكان منصرفاً من الحج- السماءَ والأرضَ يَبكِيَان، فسأل عن ذلك، فقيل له: مات أبو ميمونةَ درّاس بن إسماعيل. اهـ

1- "المطرب بمشاهير أولياء المغرب" للتليدي ص 42.

2- "جنى زهرة الآس" للجزنائي ص 20-21.

وتوفي بفاس بلده، سنة سبع وخميس وثلاثمائة، كما قال ابن الفرَضي[1].

[قصة ابن أبي زيد في زيارته لدَراس]

قال الكتاني في "سلوة الأنفاس"[2]: يُحكى أن أبا محمد ابنَ أبي زيد القيرواني قدِم إلى فاس لزيارة دراس بن إسماعيل، فوجده قد توفي في ذلك اليوم، فحضر جنازتَه وأقام بقبره ثلاثة أيام، ولما أراد الرحيلَ أنشد:

قِفْ بِالمَقَابِرِ لِلتّوْدِيعِ يَا حَادِ فَإنّ فِي جَوْفِهَا قَلْبِي وَأَكْبَادِ

رحمة الله على دراس وتقبل منه وأعلى مرتبته آمين، والحمد لله رب العالمين.

[1] - "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي 173/1.

2 - "سلوة الأنفاس" للكتاني 198/2.